المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل
The Scientific Journal of King Faisal University
العلوم الإنسانية والإدارية
Humanities and Management Sciences

الملمح الحجاجي في أسلوب القصر عند عبد القاهر الجرجاني

إسماعيل سويقات
المدرسة العليا للأساتذة، ورقلة، الجزائر

The Argumentative View in Abdelkahar El-Djorjani's Kasr Style

Ismail Souigat
Higher School of Teachers, Ouargla, Algeria

KEYWORDS
الكلمات المفتاحية
Argumentative factors, argumentative links, commonality, compact commonality
الاختصاص، التأويل، التداولية، التداولية المدمجة، الروابط الحجاجية، العوامل الحجاجية

RECEIVED الاستقبال 10/09/2020
ACCEPTED القبول 10/10/2020
PUBLISHED النشر 01/03/2021

https://doi.org/10.37575/h/lng/0069

الملخص

فتحت اللسانيات الحديثة مجالا واسعا أتاح للدارسين فرصة قراءة أخرى للتراث وفق المناهج والقواعد الجديدة التي مَكّن منها الدرس اللغوي المعاصر، وفي هذا البحث نحاول أن ننظر للقصر والاختصاص من منظور حجاجي حديث باعتبار هذا المبحث من العوامل الحجاجية التي تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية لقول ما، محاولين معرفة أوجه التطابق بين نظرات الجرجاني والبحث الحجاجي الحديث.

ABSTRACT

Contemporary linguistics has inspired a wide range of research and study. Applying the new rules and methodologies governing its study has presented the opportunity for novel analysis of the concept of legacy. In this research, we attempt to examine Kasr specifically from a new argumentative perspective, regarding this research as one factor that limits argumentative communication. This study aims to discover the similarities between Djerjani's view and the new argumentative theory.

1. المقدمة

لعل من أجمل ما في الدراسات اللغوية الحديثة أنها مكنتنا من إعادة قراءة التراث اللغوي واكتشاف جملة من مكنوناته وأهم ما يزخر به من نظرات عميقة أثبت الزمن أنها سابقة لعصرها بقرون، ولعل مشكلتها الوحيدة أنها جاءت متناثرة لا تجمعها قواعد تنتظمها في مجال واحد قائم بذاته، كمباحث التداولية ومباحث الحجاج وغيرها من الدراسات اللغوية الحديثة.

وفي هذا البحث نتعرض لمبحث من مباحث التداولية هو الحجاج لنركز فيه على عنصر هام يقوم بدور المُحدِّد والمُوَجِه في العملية الحجاجية وهو العوامل الحجاجية مُركزين على عامل من هذه العوامل هو القصر، من خلال ما أورده الجرجاني من ملاحظات قيمة في كتابه دلائل الإعجاز.

إن استعمال اللغة لا يقتصر على مجرد عملية الترميز أثناء إنتاج الخطاب أو فك هذه الرموز أثناء التأويل، فالبحث عن المعنى لا يقتصر على الإنتاج والتأويل في البنية المجردة بل لا بد أن يأخذ تأويلُ الجمل في الحسبان الظروفَ والسياقات التي يُطرح فيها الخطاب، وفق المعرفة المشتركة لطرفي عملية التحاور، وإذا كانت التداولية قد فرّقت بين المستوى الدلالي والتداولي، فإن التداولية المُدمجة -متمثّلة في نظريات الحجاج الحديثة - قد وضعت حدا للتفريق بين هذين المستويين.

ومحاولة منا للوصول إلى أهداف البحث ارتأينا أن تكون منهجيتنا في معالجة الموضوع وفق الخطة الآتية:

بعد المقدمة قسمنا البحث إلى جزأين أساسيين، الجزء الأول خصصناه للحديث عن الحجاج ضمن ما يسمى التداولية المدمجة، معرفين بالتداولية عموما والحجاج خصوصا مبينين خصائصه ومتوقفين عند العوامل الحجاجية مبرزين أهميتها ودورها في النص الحجاجي.

ثم خصصنا الجزء الثاني للحديث عن القصر ودوره في عملية توجيه المعنى بصفته عاملا من العوامل الحجاجية. ثم ختمنا البحث بجملة من النتائج، أهمها وعي علمائنا القدامى ببعض أساليب الحجاج وآلياته وعلاقته بطرفي العملية التخاطبية ودوره في الإقناع. وتجدر الإشارة إلى أنني تعرضت لموضوع القصر في رسالة الماجستير عند دراستي للنظم عند الجرجاني إلا أن تناولي للموضوع لم يكن من وجهة حجاجية.

1.1. تعريف التداولية ومباحثها:

وضع الفيلسوف تشارلز موريس مصطلح التداولية، والتعريف الذي قدمه هو "أن التداولية تعتبر الفرع الثالث من فروع السيمياء بعد علم التراكيب وعلم الدلالة وتهتم التداولية بدراسة العلاقة بين العلامات ومستعملها" (نحلة، 2002: 09).

وأهم ما تتميز به التداولية:

- أنها تقوم على دراسة الاستعمال اللغوي.
- تدرس علاقة اللغة بالسياق والظروف التي تستخدم فيها اللغة.
- تدرس الكيفية التي يكتشف بها المتلقي قصد المتكلم.
- تتعامل مع كل الظواهر النفسية والاجتماعية التي تظهر في توظيف العلامات (ينظر الصراف، 2010: 04).

فالتداولية "ليست علما لغويا محضا بالمعنى التقليدي، علما يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال" (صحراوي، 2005: 16).

ورغم التباين واختلاف الدارسين بشأن التداولية" إلا أن معظمهم يقر بأن قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل"(صحراوي، 2005: 16).

لذا نجد أن أوجز تعريف للتداولية وأقربه إلى القبول كما يرى جلّ الباحثين هو: "دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل"، (نحلة، 2002: 14) وهذه الدراسة تقوم على أربعة جوانب هامة هي: الإشارة [المؤشرات]. والافتراض السابق. والاستلزام الحواري. والأفعال الكلامية.

كما يعد الحجاج من بين أهم المباحث التي تهتم بها التداولية بعدما رأى فريق من اللسانيين دمج المستويين الدلالي والتداولي، لأن الحجاج يتعلق أساسا بطرفي العملية التخاطبية، المرسل والمتلقي، ومحاولة الأول التأثير في الثاني.

1.2. من التداولية الخطية إلى التداولية المدمجة:

رفض ديكرو وجون كلود أنسكومبر التصور القائم على الفصل بين الدلالة، وموضوعها معنى الجملة، والتداولية، وموضوعها استعمال الجملة في المقام والسعي إلى سبر كل ما له صلة داخل بنية اللغة بالاستعمال البلاغي المحتمل "فمجال البحث عندهما هو الجزء التداولي المدمج في الدلالة ويكون موضوع البحث هو بيان الدلالة التداولية المسجلة في أبنية اللغة وتوضيح شروط استعمالها الممكن" (المبخوت، 1998: 351).

وعلى هذا النحو فإن التداولية المدمجة بحث في القوانين التي تحكم الخطاب داخليا لاكتشاف منطق اللغة.

Corresponding Author: Ismail Souigat ismail.souigat@gmail.com , 00213669665574 المؤلف المراسل: إسماعيل سويقات

وتقوم التداولية المدمجة على أطروحات أهمها:

- ليس اللسان شفرة وضعت بغاية إيصال المعلومات، بل إن النظام اللغوي وضع لغاية التواصل باعتبار أن معنى القول مرتبط ارتباطا وثيقا بعملية قوله.
- لا يمثل اللسان مجموعة من الإمكانيات النحوية فحسب داخل الجملة إذ توجد شروط لغوية دقيقة تقيد تسلسل الأقوال.
- إن كانت التداولية مدمجة في الدلالة، اقتضى ذلك أن دراسة معنى قول يشتمل على جانبين هما دلالة الجملة (المجال اللغوي) ومعنى القول (المجال البلاغي أو التداولي). إن التمييز بين الدلالة والمعنى ضروري كلما أردنا التمييز داخل عملية بناء المعنى بين دور العناصر اللغوية ودور العناصر غير اللغوية.
- إن العلاقة بين الأقوال علاقة حجاجية لا استنتاجية. والقواعد الحجاجية التي تحكم تتالي الأقوال وتأويلها ليست قواعد منطقية أو استنتاجية وانما هي معاني حجاجية مطروقة. فالقواعد متدرجة وكلية ومقبولة من عامة النّاس (موشلر، ريبول، 2010: 84).

1.3. تعريف الحجاج:

- لغة: جاء في لسان العرب "حاججته أحاجّه حجاجا ومحاجة حتى حجته أي غلبته بالحُجج التي أدليت بها...والحُجة البرهان وقيل الحُجة ما دُفع به الخصمُ...والتحاجُجُ التخاصمُ... وحاجّه نازعهُ الحُجة...وحجّه غلبه" (ابن منظور، دون تاريخ: 226). وقال الكفوي "الحُجة، بالضم، البرهان. وعند النظار أعم منه لاختصاصه عندهم ببيقن المقدمات" (الكفوي، 1998: 406). وقال الشريف الجرجاني "الحُجّة ما دُلّ به على صحة الدعوى، وقيل الحُجّة والدليل واحد" (الجرجاني الشريف، 1985: 73).
- اصطلاحا: الحجاج نظرية وضع أسسها اللغوي الفرنسي ديكرو، تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، فكرة مؤداها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير (ختام، 2016: 131).

هذه النظرية حاولت أن تبين أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، ضمن مؤشرات لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها، وهي "تعتبر أن القيمة الإخبارية للملفوظ قيمة ثانوية بالنظر إلى قيمة الملفوظ الحجاجية" (الحباشة، 2008: 23). ولفظة الحجاج هنا لا تعني البرهنة على صدق إثبات ما، أو إظهار الطابع الصحيح لاستدلال ما من وجهة نظر منطقية.

ولقد بنى ديكرو أفكاره وآراءه على أفكار أوستين بالخصوص" واقترح في هذا الإطار، إضافة فعلين لغويين هما: فعل الاقتضاء وفعل الاحتجاج. وفعل الاحتجاج يفرض على المخاطب نمطا معينا من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار" (العزاوي، 2006: 56).

إذن موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم وغاية كل حجاج إقناع الآخر وإذعانه لما يعرض عليه أو الزيادة في درجة ذلك الإذعان." فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتُها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب، أو هو ما وُفِّق على الأقل في جعل السامعين مُهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة" (صولة، 2011: 13).

وعليه فإن غاية الحجاج إنما هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيئه للقيام بعمل ما، فهو يأخذ من الخطابة توجيه السلوك والعمل والحض عليه (ينظر صولة، 1998: 298).

إن الحجاج باللغة يجعل الأقوال تتابع وتترابط على نحو دقيق فيكون بعضها حججا تدعم وتثبت بعضها الآخر، لأن هدف الحجاج برهاني بالأساس وهو يحرص على إقناع المتلقي وسدّ المنافذ على أي حجاج مضاد وتوجه المتلقي وجهة واحدة دون سواها.

1.4. خصائص النص الحجاجي:

إن الاستعمال الاجتماعي للكلام يجعله ذا طابع حجاجي إذ يفترض أن كل حجة لها حجة مضادة، فلا وجود لحجاج دون حجاج مضاد فمتى طرح الرأي كان في الغالب محل نزاع وجدال في غياب الحجج المادية والموضوعية، فميدان الحجاج ليس القطعي من الأمور فهذا مجاله البرهنة وإنما مجال الحجاج هو الظني من القضايا التي تحتمل العديد من الأوجه، ومن هنا يبرز الحجاج كأداة لغوية وفكرية تسمح باتخاذ قرار في ميدان يسوده النزاع وتطغى عليه المجادلة وأهم مميزات الحجاج:

- أنه يتوجه إلى مستمع.
- أنه يعبر عنه بلغة طبيعية.
- أن مسلماته احتمالية.
- أنه لا يفتقر تقدمه إلى ضرورة منطقية.
- أن نتائجه ليست ملزمة.

والنص الحجاجي لكونه نصا مترابطا متناغما يقوم على وحدة معينة لا تكون بالضرورة واضحة جلية بقدر ما تأتي على نحو خفي لا نكاد نلمحه وُضع لإقناع المتلقي بفكرة ما أو بحقيقة معينة عن طريق تقنيات مخصوصة وأهم سمات النص الحجاجي:

- القصد المعلن.
- التناغم لأنه يقوم على المنطق في كل مراحله ويوظف التسلسل الذي يحكم ما يحدثه الكلام من تأثيرات أو انفعالات وهو يدل على ذكاء صاحبه ويشي بمعرفته الدقيقة بنفسية المتلقي وقدراته وآفاق انتظاره.
- الاستدلال والبرهنة (ينظر العزاوي، 2006: 299).

والنص الحجاجي في حقيقته حوار مع المتلقي، حوار يقوم على علاقة ما بين مؤسس النص ومتلقيه ضمن خطاب يراهن في أحيان كثيرة على إقناع أكبر عدد ممكن من المتلقين، لأنه يتأسس حول أطروحتين متباينتين وقد يطمح أحيانا إلى إقناع ما يسمى بالمتلقي الكوني، لأنه موضع رؤى متباينة متناقضة (ينظر الدريدي، 2007: 28).

وبما أنه فكر الآخر الذي يتعارض مع فكري، يبدو لي مجانبا للحقيقة ولا يرقى إلى اليقين بل يضل ضمن دائرة الممكن المحتمل ومن هنا هو يتأسس على الصراع ويتولد من رحم الاختلاف. (ينظر عديل، 2016: 12).

1.5. العوامل الحجاجية:

ينبغي أن نميز بين صنفين من الواسمات والأدوات الحجاجية أي بين الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية، فالروابط تربط بين قولين أو بين حجتين أو أكثر وتسند لكلّ قول دورا محددا داخل الإستراتيجية الحجاجية العامة، ويمكن التمثيل للروابط بالأدوات التالية: بل، لكن، حتى، لاسيما، إذا، لأن، بما أن... أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، وجل أدوات القصر.

ولنوضح مفهوم العامل الحجاجي إليكم الأمثلة الآتية:

- المعطف بألف دينار.
- المعطف بألف دينار، على الأقل.
- المعطف بألف دينار فقط.

لا اختلاف بين الأمثلة الثلاثة بخصوص القيمة الإخبارية أو المحتوى الإعلامي ولكن الذي تأثر بهذا التعديل عند إدخالنا لعبارة 'على الأقل'، أو لفظة ' فقط '، هو القيمة الحجاجية للقول، أي الإمكانات الحجاجية التي يتيحها، فإذا أخذنا القول "المعطف بألف دينار"، فإنه يحتمل معان كثيرة منها، أنه غال، رخيص، أو أن سعره مناسب أو مُغرٍ. لكن عندما دخلت عليه لفظة ' فقط' أو عبارة 'على الأقل'، نجد أن هاته العوامل، قيدت احتمالات التأويل التي كانت في الجملة الأولى وعينت لها وجهة حجاجية واحدة، هي "إنه غال جدا" في الجملة الثانية، و"إنه رخيص ومناسب "في الجملة الثالثة.

فالمثال الأول نجد أن له إمكانات حجاجية كثيرة، لكن عندما أدخلنا عليه العامل الحجاجي في الجملة الثانية والثالثة فإن إمكاناته الحجاجية تقلصت. ومن هنا كانت العوامل الحجاجية عنصرا مساعدا لإظهار المنحى الحجاجي في اللغة وأداة لتحقيق جلّ وظائفها.

فالحجاج كما يرى ديكرو قائم على التوجيه، والعامل الحجاجي من شأنه أن يقوي درجة هذا التوجيه وهذا للوصول إلى نتيجة محددة دون غيرها فهي تعطي وجهة حجاجية للملفوظ تجعله يسير في اتجاه محدد من الاتجاهات.

وهناك وظيفة ثانية للعوامل وهي تقوية طاقة الملفوظ الحجاجية وذلك بالقضاء على الغموض وتعدد التأويلات، فالعامل الحجاجي يجعلها محددة وذلك بربطه الحجة بالنتيجة، فهي "الآثار الظاهرة التي تؤكد حجاجية الملفوظ وليس لها من وظيفة سوى ضمان التوجيه الحجاجي لهذا الملفوظ للقضاء على تعدد الاستلزامات والنتائج وذلك بنقل المتقبل من التعدد

والغموض إلى وحدة النتيجة والمقصد من الملفوظ، فالعامل الحجاجي يؤدي إلى حصرها حتى تقود إلى نتيجة واحدة وذلك بالانتقال بالملفوظ من الإبلاغية إلى الحجاجية" (الناجح، 2011: 35).

2. البعد الحجاجي للقصر عند عبد القاهر الجرجاني

2.1. البعد الحجاجي للقصر عند عبد القاهر الجرجاني:

تعريف القصر في اللغة: الحبس (ابن منظور، دون تاريخ: 95). وفي الاصطلاح: "تخصيص شيء بشيء وحصره فيه ويسمى الأمر الأول مقصورا والثاني مقصورا عليه" (الجرجاني الشريف، 1985: 183). وعرفه السيوطي بقوله هو "تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص. وقيل: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه" (السيوطي، 1426هـ: 796). وعرفه القرافي بقوله هو "إثبات نقيض حكم المنطوق للمسكوت عنه بصيغة (إنما) ونحوها" (القرافي، 2004: 51).

وتجدر الإشارة إلى أن القصر يرتبط بالمقام أساسا، ولولا الاختلاف في وجهات النظر لما جاز القصر فلا تقول مثلا: إنما العالم عبد الحميد بن باديس، إلا لمن جعل له ندّا وشبيها، وأنت ترى غير ذلك، ولو كنت متفقا معه لاكتفيت بقولك: عبد الحميد بن باديس عالم. ومن هنا اكتسب القصر بعده الحجاجي فاختلاف وجهات النظر والغاية الإقناعية للمتكلم هي التي جعلت الكلام حجاجا. والقصر له ركنان: مقصور ومقصور عليه تقول:

"إنما الشاعر أنا"، أو "إنما أنا شاعر"

في الأولى قصر صفة على موصوف "أي صفة الشاعرية على المتكلم"

وفي الثانية قصر موصوف على صفة "قصر المتكلم على الشعر دون غيره" والمعنى بهذا التقديم والتأخير يختلف تماما بين الجملتين.

بهذا التخصيص يقضي القصر على تعدد الاستلزامات والنتائج بنقل المتلقي من التعدد والغموض إلى وحدة النتيجة والمقصد بمحاولة إحداث التغيير في تفكير المخاطَب واعتقاده.

ومن أجل هذا جعل مهدي المخزومي القصر توكيدا وانتقد أن يجعل مع الاستثناء في موضع واحد وفي ذلك يقول "الفرق كبير بين قولهم: سافر القوم إلا زيدا، وقولهم: ما سافر إلا زيد. فالمثال الأول استثناء والمثال الثاني توكيد، ولا صلة لأحد الأسلوبين بالآخر" (المخزومي، 1986: 233، البياتي، 2003: 228).

أما باعتبار الواقع فينقسم القصر إلى قسمين: (ينظر الجرجاني الشريف، 1985: 183).

- حقيقي: مثل: "لا معبود بحق إلا الله" و "لا تقع الرمال إلا في الجنوب الجزائري"
- غير حقيقي "إضافي": ويكون بقصد المبالغة لأن هناك من يشارك المقصور عليه في تلك الصفة المقصورة مثل: "إنما الشاعر المتنبي"، "لا شاعر عند العرب إلا المتنبي". ومن المعلوم أن قصر الصفة على الموصوف قد يكون حقيقيا وقد لا يكون؛ بينما قصر الموصوف على الصفة يكون غير حقيقي دائما لأن كل موصوف لا بد أن تكون له جملة من الصفات، ولذلك يكون قصره على صفة واحدة قصرا غير حقيقي.

أما إذا نظرنا إلى حال المتكلم مع المخاطب فإن القصر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قصر قلب وقصر إفراد وقصر تعيين ذلك أن المخاطب قد يعتقد عكس ما يرى المتكلم، أو يعتقد الشركة فيه من أطراف أخرى، أو يكون شاكا. فيكون قصر قلب إذا أراد المتكلم أنْ يَقْلِبَ مُعْتَقَد المخاطَب كلّيا كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة75]

وتقول: "إنما الناجح عمرو" لمن كان يعتقد غيرَه.

ويكون قصر إفراد لمن زعم أن غيره يشاركه الصفة، أو أن الموصوف يتصف بعدة صفات والمتكلم يريد أن يثبت له صفة واحدة ويقصره عليها مثال الأول قولنا: "إنما الشاعر المتنبي "لمن أراد أن يصفه بالتفرد في صفة الشاعرية دون غيره من الشعراء.

وتقول في الثاني: "إنما أنا طالب "وكأنك تقول: "أنا طالب لا غير "وليس لي صفة أخرى فأنا على صفة واحدة فريدة. ويكون قصر تعيين يُوجَّه لمخاطَب شاك، بغرض تخليصه من شكه، كقولنا لمن يشك في نزاهة الامتحانات: "إنما ينجح المجدّون " والملاحظ أن كل مثال من هذه الأمثلة يصلح لهذه الأنواع الثلاثة من القصر لأن الاعتبار فيها هو حال المخاطَب وغرض المتكلم، والمتكلم بالمثال الواحد قد يكون غرضه قلب مفهوم المخاطب أو إفراد غرضه لمن يظن التعدد، وقد يكون غرضه التعيين لمن يوجه الخطاب لمخاطب شاك.

فدور العامل الحجاجي هو الوقوف على حدود دلالة الخطاب انطلاقا من المظاهر اللغوية القابلة للقراءة على أساس التوجيهات والتعليمات التي توفرها أبنية اللغة للقائل، حتى يوجه خطابه وجهة ما. (المبخوت، 1998: 359).

وأما طرق القصر فأربع:

- القصر بـ "إنما" كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات10]
- القصر بالنفي مع "إلا" كقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران144]
- القصر بالعطف: وحروفه "لا"، "بل"، "لكن"، فتقول مثلا: "جاء محمد لا علي– جاء محمد بل علي– ما جاء محمد ولكن خالد".
- تقديم ما حقه التأخير. (ينظر فضل، 2018: 381). مثل قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم04]

2.2. دلالات صيغ القصر:

بعد هذا العرض السريع للقصر نأتي إلى بعض النماذج التي تحدث فيها الجرجاني عن القصر ليشرح نظريته في النظم ونكتشف مدى التقاطع والتطابق أحيانا مع ما سمي لاحقا بالتداولية المدمجة أو الحجاج، فبعد أن أورد بيت الفرزدق (الفرزدق، 1983: 315):

أنا الذَّائِدُ الحامي الذِّمار وإنّما يدافعُ عن أحسابهم أنا أو مِثلي

ذكر كلاما لأبي علي الفارسي ملخصه: إن هذا الكلام إما أن يكون موجبا أو منفيا، فإن كان موجبا يكون الشاعر كأنه قال: "أدافع أنا "والضمير بعد الفعل ينبغي أن يضمر، وعليه هذا الكلام لا يجوز وانما الجائز أن تقول: " أدافع" ومنه كان الكلام منفيا وتقديره: "ما يدافع إلا أنا" ولما كان كذلك جاز فصل الضمير كما تفصله مع النفي بعد "إلا" حملا على المعنى. والمعنى" ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلي".

يستدرك الجرجاني على كلام شيخه ويلاحظ أنهما وإن بَدَوَا بمعنى واحد إلا أنهما يختلفان وأقصد الحصر بـ "إنما" والحصر بالنفي مع "إلا".

يقول عبد القاهر: "اعلم أنهم، وإن كان قد قالوا هذا الذي كتبته لك فإنهم لم يعنوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه، وأن سبيلها سبيل اللفظتين يوضعان لمعنى واحد وفرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء، وبين أن يكون الشيءُ الشيءَ على الإطلاق" (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 328).

ومعنى هذا أنّه لا يَصِحُّ أن تقوم إحداهما مكان الأخرى دائما، وهذا ما يُظهر الفرق، إذن نحن أمام عاملين حجاجين مختلفين، والمثال الذي ساقه دليلا على ذلك هو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران62]، وقول القائل: "ما أحد إلا وهو يقول الحق " إذ لا يجوز أن تقول: "إنما من إله الله" إذ ليس لهذا الكلام معنى. ولا تستطيع أن تقول: "إنما أحد وهو يقول ذلك"، لأن " أحد" لا تكون إلا في النفي وما يجري مجراه من النهي والاستفهام، وأن "من" المزيدة، لا تكون أيضا إلا في النفي وفرق آخر بين أسلوبي القصر أنك تستطيع النفي بـ "لا" بعد "إنما" فتقول" إنما هو درهم لا دينار"، ولا تستطيع ذلك بعد "ما، وإلا" فلو قلت: " ما هو إلا درهم لا دينار" لم يُقبل هذا الكلام.

فهم لا يَعنُون إذن أن يجعلوا" إنما" في معنى "ما وإلا"، فالمعنى فيهما ليس واحدا، ولا قصدوا أن يسقطوا الفرق.

وسبب ذلك كما بين الجرجاني أن" إنما" تجيء لخبر يجهله المخاطب، أو لخبر يجادل فيه كأن تقول لرجل" إنما هو أخوك" إذا رأيته مقصرا وأردت أن تحثه على أداء حق الأخوة. ولذلك عندما قال المتنبي مخاطبا كافورا (المتنبي، 1900: 394):

إنَّما أنتَ والدٌ والأبُ الـقــا طِعُ أحْنى من واصل الأولاد

لم يرد أن يعلمه أنه والد، ولكنه أراد أن يذكره بواجب الأبوة، كونه بمنزلة الوالد. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام36]. فهي حقيقة يعرفها الجميع، فالذي لا يسمع ولا يعقل لا يمكن أن يستجيب، وانما غرض الآية شيء آخر هو التعريض بهؤلاء القوم وتوبيخهم، وهنا نلاحظ أن الغاية الحجاجية الأولى التوجيهية القريبة ليست هي الغاية النهائية فقد تكون الغاية النهائية التوبيخ أو الحث، وكل هذا غايته في النهاية تقويم السلوك والتأثير بقوة في المتلقي من طريق غير مباشر يتمثل في التأنيب والتعريض أحيانا وهو أقوى من الأسلوب المباشر.

وهناك حالة أخرى تُوظف لتقوية الحجاج لا تختلف كثيرا عن المثالين السابقين، هي أن ينزل السامع منزلة العارف بالأمر العالم به، مبالغة في كون هذه الصفة في المذكور عامة والممدوح خاصة، مما لا يُجهل، وهي أيضا غايتها التعريض بالآخر، كقول ابن قيس الراقيات يمدح مصعب بن زبير (الرقيات، دون تاريخ: 91):

إنّما مصعبٌ شهابٌ من اللـ ـه تجلّت عن وجهه الظلماءُ

وأما الخبر بالنفي والإثبات "ما وإلا "فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه فلا يصلح إذن أن تقول: مكان "إنما أنت والد"، "ما أنت إلا والد" إلا إذا أردت التحقير فتقول لأحدهم: "ما أنت إلا والد مفرط".

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [ابراهيم10]، يريدون التحقير والحط من قيمة الأنبياء. وبقابله قوله تعالى على لسان الأنبياء: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [ابراهيم11]. وجاء بهذه الصيغة على الرغم من أنه لا يوجد إنكار هنا من الكفار. بل هم الذين قالوها ابتداء في الآية السابقة وسبب ذلك أن رسلهم أعادت قولهم، كمن يقول لك مثلا: " ما أنت إلا من قبيلة كذا". فتقول له: "صحيح ما أنا إلا من قبيلة كذا ولكني أفضل منك"، وكذلك هنا عندما قالوا لهم: "ما أنتم إلا بشر مثلنا"﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [ابراهيم11]. وهذا أمر لا يريد الكفار أن يعترفوا به ويجحدونه.

ويستدرك الجرجاني ويذكر الآية التي تُوهِم بخلاف ما يقول، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف110] ويقول: إن سبب مجيء "إنما" هنا رغم أنها تذكر في محط عدم الإنكار من السامع، "لأنه ابتداءُ كلامٍ قد أُمِر النبيّ ـ صلى الله عليه وسلّم ـ بأن يبلغهم إياه ويقوله لهم وليس هو جوابًا لكلامٍ سابقٍ قد قيل فيه: إن أنت إلا بشر مثلنا." (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 332).

وهناك ملحوظة أخرى يضيفها هي أنّه إذا رأيت شيئا من المعلوم الذي لا شك فيه ثم جاء بالنفي "ما وإلا" فذلك لتقدير معنى، صار به في حكم المشكوك فيه، مراعاة لحال المخاطب لا حال المتكلم ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر22]. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف188].

ويذكر الجرجاني أن قولك: "إنما جاءني زيد "شبيه في المعنى بقولك: "جاءني زيد لا عمرو"، إلا أن في التعبير الأول مزية لا توجد في الثاني، وهي أنك بالتعبير الأول تدرك ثبوتَ الفعل للأول ونَفْيَه عن الثاني دفعة واحدة، أمَّا في التعبير الثاني فإنك تدرك المعنى الإجمالي على مرحلتين، مرحلة الإثبات لـ"زيد" ومرحلة النفي عن "عمرو" بدليل أنك لو قلت: "جاءني زيد" وسكتَّ، كان قولك حكما مستقلا عن الثاني "لا عمرو". وليس الأمر كذلك مع "إنما جاءني زيد".

ثم يضيف قائلا: "ثم اعلم أن قولنا في "لا" العاطفة: أنها تنفي عن الثاني ما وجب للأول ليس المراد به أنها تنفي عن الثاني أن يكون قد شارك الأول في الفعل، بل أنها تنفي أن يكون الفعل الذي قلت إنه كان من الأول، قد كان من الثاني دون الأول" (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 334).

ويرى أننا بقولنا "جاء زيد لا عمرو"، وإن كان المعنى هو إثبات المجيء لطرف ونفيه عن طرف آخر إلا أن القضية ليست في مجيئين، أُثبتَ لطرف مجيئُه ونُفيَ عن الطرف الآخر مجيئه، وإنما هو مجيءٌ واحدٌ عُلم من المخاطَب، والمسألةُ هي بين زيد وعمرو. فالمجيء واحد ولا يعلم هل كان من زيد أو عمرو.

وللتوضيح أكثر نقول لو أبدلنا "لا" بـ "ما" فعندها أنت مرغم على إعادة الفعل" جاءني زيد ما جاءني عمرو"، وفي هذه الحالة تكون قد أثبتَّ مجيئا لزيد ونفيت مجيئا آخر عن عمرو، أما في هذه الحالة فهو مجيء واحد والقضية هي في كونه من "زيد" أم "عمرو" لذا لو قلت في هذه الجملة "جاءني زيد ما عمرو" لما جاز أيضا ومن هنا عُلم الفرق.

وما قيل عن جملة "جاءني زيد لا عمرو" ينطبق تماما على قولك: "إنما جاءني زيد "مع فارق المزية التي ذكرناها للثانية دون الأولى. ومن القضايا التي طرقها الشيخ، قضية غرض المتكلم، فقولك "ما جاءني إلا زيد" يحتمل غرضين (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 335):

- تقوله، لا لأن بالمخاطب حاجة إلى أن يعلم أن زيدا قد جاءك، ولكن لأن به حاجة إلى أن يعلم أنه لم يجيء إليك غيره، ومثاله أن يقول المدير مثلا: "هل حضر الأساتذة؟ " فيجاب: "ما حضر إلا واحد" فحاجة السائل إلى الجماعة لا إلى الواحد منفردا، وفهم بهذا الكلام أن الجماعة لم تحضر. وهذا يذكّر بما يسمى عند علماء أصول الفقه بمفهوم المغايرة أو المخالفة؛ فعندما قيل: "المال إذا بلغ النصاب وجبت فيه الزكاة" دل هذا وفي الوقت نفسه على أنْ لا زكاة في مال لم يبلغ النصاب.
- أنْ تقوله ليعلم أن القادم زيد لا غيره.

فنحن إذن أما موقفين مختلفين يخضعان لغرض المتكلم، وهذا الغرض يتحكم فيه موقف المتلقي الذي قد يكون سائلا، ويكون المتكلم بذلك وكأنه يجيب على سؤالين، مختلفين بالتأكيد، هما على سبيل المثال:

- هل جاء المدعوون؟ ويكون الجواب ساعتها، ما جاء إلا زيد. ويكون الهدف ساعتها هو نفي الحضور عن المدعوين.
- هل جاء عمرو؟ ويكون الجواب حينها، ما جاء إلا زيد. بنفي المجيء عن عمرو.

تأمل قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة117] وهو يختلف عن المعنى الذي ذكر في الغرض الأول.

فليس المعنى في الآية على حد قول الجرجاني: أنه لم يزد على ما أمره الله به شيئا، ولكن المعنى أنه لم يَدعْ ما أمره الله به وقال خلافه، فعيسى لم يُسأل عن زيادة زادها فأجاب: "ما قلت إلا ما أمرتني به ولم أزد عليه". وإنما سئل هل قلت هذا أم لا؟ بدليل الآية التي سبقت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة116] والجواب: ما قلت هذا وإنما قلت الذي أمرتني بقوله. (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 141).

وفي استعمالات "إنما" أيضا تساءل الجرجاني عن مدلول التقديم الذي وقع في الحصر الموجود في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر28]. وما الفرق بين هذا وقولنا: "إنما يخشى العلماءُ اللهَ" وذكر أن الفرق بينهما كالفرق بين قولك: "ما ضرب زيدا إلا عمرو"، وبين قولك: "ما ضرب عمرو إلا زيدا" بتقديم المفعول حينا وتأخيره حينا، والفرق بينهما بيّن جليّ كما ترى.

ومعنى الأولى: "أن زيدا ضربه عمرو وحده ولم يشاركه غيرُه في الضرب"، أما الجملة الثانية فمعناها "أن عمرو ضرب زيدا وحده ولم يضرب معه غيرَه"، في الأولى كان الفاعل واحدا وفي الثانية كان المفعول واحدا، فإذا انتقلنا إلى الآية علمنا أن تقديم اسم الجلالة جعل المعنى: أن العلماء خاصة دون غيرهم هم الخاشعون لله حقيقة بينما لو قلنا: "إنما يخشى العلماءُ اللهَ". كان المعنى إن العلماء يخشون الله وحده ولا يخشون معه غيرَه

وزيادة في الإيضاح نلاحظ الفرق بين الجملتين:

- إنما يخشى اللهَ العلماءُ دون غيرهم.
- إنما يخشى العلماءُ اللهَ دون سواه.

والفرق شاسع بينهما كما ترى.

والخلاصة أن الاختصاص يقع في واحد من الفاعل والمفعول، ولا يقع فيها جميعا، ثم إنه يقع في الذي يكون بعد "إلا" منهما" (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 337).

أما الأمر مع "إنما" فالاختصاص يقع معها في المؤخر منهما دون المقدم، فإذا أخرت الفاعل كان الاختصاص واقعا عليه وإذا أخرت المفعول وقع

الاختصاص عليه.

والإشارة الأخرى التي جاء بها عبد القاهر وهي: إنه إذا أخرت الفاعل والمفعول معا كان الاختصاص واقعا على الذي يلي "إلا" منهما، فإن قلت: "ما ضرب إلا عمرو زيدا" كان الاختصاص في الفاعل أي "عمرو" لا غير.

وإن قلت: "ما ضرب إلا زيدا عمرو" كان الاختصاص في المفعول أي "زيد" لا غير (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 339).

يقول السيد الحميري (الحميري، 1999: 125):

لو خُيِّـرَ المنبرُ فرسانَـــه ما اختار إلا منكم فارســـا.

الاختصاص في "منكم" دون "فارسا"، ولو قلت: "ما اختار إلا فارسا منكم"، صار الاختصاص في "فارسا".

والأمر نفسه يقال على المبتدأ والخبر إذا كانا بعد "إنما" إلا أن الأمر يختلف قليلا وهو أن الاختصاص يقع على الثاني لا على الذي يقع بعد "إنّما".

تأمل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد40]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ [التوبة93]

فالرسول مطالب بالبلاغ وحده دون سواه، وليس المعنى أن الرسول وحده دون غيره مطالب بالبلاغ والدعوة. والسبيل أو الإثم واقع على الذين يستأذنونك دون غيرهم (وهم المنافقون).

وفي الاختصاص معنى آخر في مثل قولنا "ما زيد إلا قائم" وهو أن الاختصاص واقع على القيام من دون الأوصاف التي تنافي القيام لا كل الأوصاف، فقولنا هذا لا يدخل فيه نفي صفة الطول والكرم عن زيد، وإنما نفينا عنه الجلوس أو النوم وغيرها من الأوصاف التي تقابل القيام.

2.3. امتناع النفي بعد " إلا ":

ومما ينبغي معرفته أنك لا تستطيع أن تقول: "ما زيد إلا قائم لا قاعد"، وقول: "ما جاءني إلا زيد لا عمرو" في حين أنك تستطيع أن تقول: "إنما جاءني زيد لا عمرو". والسبب أن قولك: "ما جاءني إلا زيد" فيه تخصيص للمجيء لزيد بنفيه عن غيره، لذلك لا يجوز النفي مرة أخرى، بينما التخصيص للمجيء في قولك: "إنما جاءني زيد" فوقع بإثبات المجيء لزيد دون غيره، لذا جاء النفي بعد الإثبات فقلت: "إنما جاءني زيد لا عمرو" هنا النفي توكيد للكلام السابق عنه، بينما في جملة: "ما جاءني إلا زيد لا عمرو" يكون النفي تكريرا لنفي سابق، فلا داعي إليه (ينظر الجرجاني عبد القاهر، 2002: 347).

ونظير جملة الإثبات في التخصيص قولك: "زيد هو الجائي" فبتخصيصك هذا بإثبات المجيء لزيد، نفيت المجيء عن غيره، وهو نفي يسميه الجرجاني نفيا عن طريق المعقول لا نفيا بالأدوات وهو ما يسميه علماء الأصول مفهوم المخالفة ومثاله أن يكون في قسم ما، عشرون طالبا ثم تقول: الناجحون هم فلان وفلان وفلان، وتذكر عشرة طلاب. فعن طريق المعقول يدرك الطلبة الذين لم تذكر أسماؤهم أنهم راسبون وما قيل عن "إلا" ينطبق على "غير"، فإذا قلت: "ما جاءني غير زيد" دلّت الجملة على:

- أنك تريد نفي أن يكون قد جاء معه إنسان آخر.
- أنك تريد أنه جاء هو بالذات ولم يأتي أحد مكانه، وكأنك قلت: "جاء هو بذاته، لا أحدٌ غيره" لذلك لا يصح أن تقول: "ما جاء غير زيد لا عمر"، كما لا يجوز أن يقول: "ما جاء إلا زيد لا عمرو"، كما سلف.

ومما ينبغي أن يعلم أيضا أن "أنما" إذا وقع بعدها فعل لا يصح إلا من المذكور، ولا يكون من غيره، لم يحسن العطف بـ "لا" فيه. لذا لا يحسن أن نقول: "إنما ينجح المجدون لا المتكاسلون". لأن النجاح لا يكون عادة إلا من المجدين فإذا كان "إنما ينجح المجدون" معناه لا ينجح المتكاسلون يكون النفي تكرارا وكأنك قلت: "لا ينجح المتكاسلون، لا المتكاسلون" ويختلف الحال مع جملة "إنما حضر زيد لا عمرو" لان الفعل حضر يصح من "زيد" ويصح من "عمرو" وليس "زيد" مختصا به دون غيره. لأن اختصاصَ جهةٍ بأمر ما، هو نفيه عن جهة أخرى في الوقت ذاته. ومن أجل ذلك جاز النفي في الآية الكريمة ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية21]، لأن التذكير فعل يصحّ من الرسول كما يصحّ منه غيرُه من الأعمال فالرسول يصح منه التذكير وأعمال أخرى كالسيطرة وإرغام الناس على الإيمان، فذكّره الله أن مهمته تنحصر في التذكير وقد تقولُ: "ما جاءني زيد وإنما جاءني عمرو" وهو يختلف عن قولك: "ما جاءني زيد وجاءني عمرو "والفرق أن الأولى تقال لمن أخطأ وظن أن المجيء كان من "زيد" وهو في الحقيقة من "عمرو" فالمخاطب يدرك أن القادم واحد وأخطأ في كونه من "زيد" أو "عمرو". بينما المعنى في الثانية يكون ردا على من ظن أنهما جاءا معا فتنفي المجيء عن "زيد" وتثبته لـ "عمرو".

وتكون "إنما" أقوى وأعلق بالقلب، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها المعنى الظاهرُ منه، ولكنّ المراد منه التعريض بأمر هو مقتضاه. كما أنك تدرك أنّ "كثير الرماد" ليس الغرضُ منها المفهوم الذي ترسمه البنية الظاهرية، وإنما الغرض منها لازم معناها كما يقول البلاغيون في الكناية. كذلك الأمر هنا فعندما تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد19]. نفهم أن المقصود ليس المعنى الظاهري فحسب فذلك مالا يَحتاج إلى ذكر وإنما الغرض منها التعريض والذّم للّذين لا يستعملون عقولهم فصاروا وكأنهم بدون عقول. فإذا تأملت قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد19]، لاحظت أن التعريض لا يكون بدون "إنما" فلو قلت: "يتذكر أولوا الألباب" كان مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون." (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 374). أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة11]. فالحصر هنا على اعتبار أن المتكلم يدّعي أنّ الأمر معلوم، وأنّه من الصحة بحيث لا ينكره أحد. فجاء العامل الحجاجي (القصر)'هو تعيين الوجهة الحجاجية للجملة لأنه قيد احتمالاتها' (بخوش، 2016: 346). فاليهود-هنا – ادّعوا لأنفسهم الإصلاح وأظهروا أنهم يدَّعُون من ذلك أمرا ظاهرا معلوما لا جدال فيه، لذلك رَدَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة12]، وكأنّهم عندما اعتقدوا ذلك اعتقادا جازما وأنّه من الأمور التي لا جدال فيها، صاروا هم بذاتهم لا يشعرون أنّهم مفسدون. (ينظر الجرجاني عبد القاهر، 2002: 348).

2.4. وجوه التعريف بالألف واللام في الخبر على معنى الجنس ودلالته على القصر:

وللتعريف بالألف واللام في الخبر على معنى الجنس، وجوه:

- الوجه الأول: أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصد المبالغة كقولك: "زيد هو الجواد" و"عمرو هو الشجاع" تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود لا يوجد إلا في زيد وأن الشجاعة لا توجد إلا في عمرو، لذا لو قلت: "زيد هو الجواد وعمرو"، ما جاز هذا الكلام لأنك قَصَرْت ثم نَقَضْت القصر بالعطف، فالعطف يناقض القصر في مثل هذا الموضع، مع أن المقصود بالقصر هنا هو المبالغة لا الحقيقة.
- الوجه الثاني: أن تقصر لا على معنى المبالغة، بل على دعوى أنه لا يوجد إلا منه ولا يكون ذلك إلّا إذا قيدت المعنى بشيء يخصصه، ويجعله في حكم نوع برأسه، وذلك كنحو أن يقيد بالحال والوقت. فإذا قلت: "أنت الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرا" نويت أنه متفرد في هذا الأمر (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 204).

وهكذا أيضا إذا كان الخبر بمعنى يتعدى، ثم اشترط له مفعولا مخصوصا كقول الأعشى في قصيدة يمدح به قيس بن معد يكرب (الأعشى، 1927: 40):

هُوَ الواهبُ المائةَ المُصْطَفا ةَ إمّا مَخاضاً وإمّا عِشارا

والمعنى المقصود هنا هو أنه لا يهب هذا النوع من الهبة إلا الممدوح، وليس المقصود الهبة نفسها. فالمعنى في البيت يختلف عن قولنا: "زيد هو المنطلق"، فالبيت يَدلُّك على أن المعنى يتكرر منه وعلى أن هذه عادته فهو يهب المائة مرة بعد أخرى. وأما المعنى في الجملة فعلى قصد أن الانطلاق كان مرة واحدة ولم يقصد به جنس الانطلاق، فالتكرّر في هذه الجملة غير متصور.

الوجه الثالث: قصر يفيد أن المقصود من جنس ظاهر لا ينكره أحد، ومنه قول الخنساء ترثي أخاها صخرا (الخنساء، 2004: 99):

إذا قَبُحَ البُكاء على قتيل رأيتُ بكاءك الحَسَنَ الجَميلا

لم تُرد أن ماعدا البكاء عليه ليس بحسن ولا جميل، ولم تُقيّد الحسن بشيء فيتصور أن يُقصر على البكاء – أي لا يمكن أن نتصور أن الحسن مقصور على البكاء دون غيره-وانما أرادت أن تضع البكاء في جنس ما حسنه الحسن الظاهر الذي لا ينكره أحد، ولا يشك فيه شاك.

الوجه الرابع: يختلف عما ذكرنا في المواضع الثلاثة السابقة؛ وشَرْحُ ذلك أنك عندما تكون في حوار مع مخاطَب لم يتمثل بوضوح ما تقوله، ولم يستوعب الفكرة التي توجهها له، تقول له مثلا وأنت تخبره عن عالم أو أستاذ لا يعرفه ولم يتصور مقدار علمه، فتقول له "هو العالم الكبير وهو الأستاذ الرائع "وكأنك تقول لصاحبك: هل رأيت عالما كبيرا وهل التقيت أستاذا رائعا؟ إذا تصورت هذه الصفة وعرفتها، فمن أُحدِّثك عنه هو كذلك. أو تقول لمن أردت أن تصف له شجاعةَ رجلٍ ما، هل تعرف الأسد؟ هو الأسد.

الوجه الخامس: ويزداد فيه هذا المعنى ظهورا بأن تكون الصفة التي تريد الإخبار بها عن المبتدأ، مُجراةً على موصوف كقول ابن الرومي يمدح الوزير صاعدا بن مخلد (ابن الرومي، 2002: 376):

هُوَ الرَّجل المشْروكُ في جُلِّ ماله ولكنَّه بالمجد والحَمْد مُفْرَدُ

كأنَّ الشاعر يقول للسامع: فكر في رجل لا يتميز سائلوه وجيرانه ومعارفه عنه في ماله وأخذ ما شاءوا منه. فإذا حصلت صورته في نفسك فاعلم أنه ذلك الرجل، أي ضع في نفسك معنى هذا القول: "رجل مشروك في جل ماله "ثم تأمل فلانا فإنك تستملي هذه الصورة منه وتجده يؤديها لك نصا ويأتيك بها كملا. ومنه قول ابن الرومي (ابن الرومي، 2002: 509):

أهدى إليّ أبو الحسين يـــدا أرجو الثوابَ بها لديه غَـــدَا
وكذا عادات الكـــــريم إذا أولى يَدا حُسِبَت عليه يـــدا
إنْ كان يحْسدُ نفسَه أحَـدٌ فلأَنْعُمَنَّك ذَلك الأحَـــــدا

فهذا كله على معنى الوهم والتقدير، وأن يصور في خاطره شيئا لم يره ولم يعلمه، ثم يجريه مجرى ما عُهِد وعلم، وهذا المعنى يقع مع [الذي] كثيرا.

يقول حجية بن المضرب السكوني وهو شاعر جاهلي (أبو تمام، 2000: 721):

أخوك الّذي إن تَدْعُهُ لِمُلِمَّة يُجبْك وإنْ تَغْضبْ إلى السَّيف يَغْضَب

وقول بشار بن برد (بشار، 2007: 326):

أخوك الذي إنْ رِبْتَه قال إنَّما أَرِبْتُ وإنْ عاتبْته لَانَ جانبُه

فالشاعر هنا قدَّر إنسانا هذه صفته وهذا شأنه، وهي صورة متخيلة لا حقيقية أحالت السامع إلى تجسيدها بخياله دون أن يكون قد عرف رجلا بهذه الصفة المعينة، فأخبره أن المستحق لصفة الأخوة هو من كان على هذه الصورة التي ارتسمت في ذهنه.

وقد قال الجرجاني في هذا: "ولكون هذا الجنس معهودا من طريق الوهم والتخيّل جرى على ما يوصف بالاستحالة" (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 209). لذلك عندما سمع المأمون قول أبي العتاهية (أبو العتاهية، 1986: 464):

وإنّي لمشتاقٌ إلى ظلّ صاحب يرُوق ويصفُو إنْ كَدَرْتُ عليه

قال: خذ مني الخلافة وأعطني هذا الصاحب (الجرجاني عبد القاهر، 2002: 210).

لأنه قدر أن مثل هذا الصاحب لن يكون.

وفي كل هذه الحالات الخمس من القصر لا يخفى البعد الحجاجي ممثلا في محاولة المرسل للخطاب التأثير على السامع والمتلقي عموما وما هذه المبالغة وهذا التأكيد إلا دليل على ذلك، وعملية الحصر هنا أيضا قامت بتوجيه المخاطَب نحو وجهة واحدة بالحد من كثرة الاستلزامات والنتائج التي كان يحملها وحصرت المسالك التأويلية عنده.

ومن هاته النماذج كلها اتضح أن العامل الحجاجي (القصر)بكل صوره وأساليبه يقوم بثلاثة وظائف حجاجية هي:

- القضاء على تعدد الاستلزامات والنتائج: وهذا بنقل المتلقي من التعدد والغموض إلى وحدة النتيجة والمقصد، بحصر المسالك التأويلية، وتم هذا بنقل الملفوظ من البعد الإبلاغي إلى البعد الحجاجي.
- تنشيط المواضع الحجاجية: التي هي العمدة في ارتباط المعطى (الحجة) بالنتيجة، وعلاوة على وظيفته التعاقدية بين الحجة والنتيجة، فإنه يعتبر كذلك ضامنا من ضمانات تسلسل الخطاب وعنصرا من عناصر تناسقه.
- تقوية التوجه نحو النتيجة: وهذا على صعيد ما يسمى بالسلالم الحجاجية التي يمكن اعتبارها آلية من آليات البرهنة على مقولة التوجه الحجاجي، بل وحجاجية اللغة (ينظر الناجح، 2011: 35).

3. الخاتمة

أما أهم النتائج التي خرجنا بها من البحث فهي كالآتي:

- يؤكد البحث على فرضية الطبيعة الحجاجية للغة الطبيعية، ويبرز بعض الجوانب الحجاجية للغة العربية.
- يرى البحث أن الخطاب مهما بدا إخباريا محايدا فإنه يحمل طابعا حجاجيا ما دام يحدث ضمن سياقات اجتماعية، الغرض من كل ملفوظ فيها محاولة التأثير في الآخر مهما كانت درجة ذلك التأثير من القوة أو الضعف، وهو ما يعطي للسياق أهميته ودوره في تأويل الخطاب وتوجيهه، وما دام الأمر كذلك فلا داعي في نظرنا للتفريق بين الدلالة والتداولية على اعتبار أن كل خطاب يحمل مضمونا حجاجيا.
- كانت نظرات الجرجاني في مبحث (القصر) دقيقة تطابقت في كثير من الأحيان مع مباحث الحجاج لأنها انتهت إلى الغاية الإقناعية للقصر آخذة في الحسبان حالة الشك والاعتراض عند المتلقي.
- لقد بينت هاته الوقفات مع مبحث(القصر) دور هذه الواسمة الحجاجية في القضاء على تعدد التأويلات مع تقوية التوجه نحو النتيجة بربط الحجة بالنتيجة بحثا عن المزيد من الإقناع وطلبا للتأثير على المتلقي.
- عناصر اللغة في نظر عبد القاهر الجرجاني قيود تضبط ترتيب الأقوال في النصوص والخطابات، إذ إن ترابط الأقوال مسجل في بنية اللغة بصفة علاقات توجه القول وجهة دون أخرى وتفرض ربطه بقول دون آخر وهو ما جاءت به التداولية المدمجة حديثا.
- في مباحث (القصر) تبدو جليا الوظيفة الحجاجية للغة وهذا ما يعني أن التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة الأدوات اللغوية التي تم توظيفها فيها. فالقصر أداة توجيهية يقدمها المتكلم للمتلقي تتضمن إرشادات يوظفها في فعل التأويل من خلال بنية الخطاب فهو من العلامات المكونة لبنية اللغة والتي لها دور في تحديد القيمة الحجاجية للملفوظات.
- حصر الاحتمالات الممكنة للمعنى - وهو ما تقوم به العوامل الحجاجية عامة ومن بينها القصر- لا يمكن أن يؤثر على المضمون الخبري للجملة.

نبذة عن المؤلف

إسماعيل سويقات

المدرسة العليا للأساتذة، ورقلة، الجزائر، ismail.souigat@gmail.com،
00213669665574

الدكتور سويقات من مواليد 1962/12/27 بورقلة الجزائر خريج المعهد التكنولوجي للتربية سنة 1984 حاصل على شهادة الماجستير من جامعة محمد خيضر ببسكر الجزائر سنة 2012. نال شهادة الدكتوراه العلوم من جامعة قاصدي مرباح ورقلة 2017. يدرس حاليا بالمدرسة العليا للأساتذة بورقلة. أستاذ محاضر، تخصص علوم اللسان، عضو في اللجنة العلمية لقسم الآداب واللغة العربية، وعضو مجلس التسيير بالمدرسة العليا للأساتذة بورقلة، وعضو مجلس التسيير بالمعهد التكنولوجي للتربية بورقلة. نشرت مجموعة من البحوث في بعض المجلات المحكمة داخل الجزائر.

المراجع

ابن الرومي، علي بن العباس. (2002). *الديوان*. ط3. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن برد، بشار. (2007). *الديوان*. الجزائر، الجزائر: وزارة الثقافة.

ابن منظور، محمد بن مكرم. (دون تاريخ). *لسان العرب*. بيروت، لبنان: دار صادر.

أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم. (1986). *الديوان*. بيروت، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر.

أبو تمام، حبيب بن أوس. (2000). *ديوان الحماسة*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

الأعشى، ميمون بن قيس. (1927). *الديوان*. دون بلد النشر: مطبعة آذلفهلزهوسن.

بخوش، كمال. (2016). الأسس المعرفية لمقاربة النصوص الحجاجية. *مجلة تعليميات جامعة يحي فارس المدية*، بدون رقم المجلد(9)، 239–352.

البياتي، سناء حميد. (2003). *قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم*. عمان، الأردن: دار وائل للنشر.

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. تحقيق: ياسين الأيوبي. (2002). *دلائل الإعجاز*. بيروت، لبنان: المكتبة العصرية.

الجرجاني، علي بن محمد. (1985). *التعريفات*. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان.

الحباشة، صابر. (2008). *التداولية والحجاج*. دمشق، سوريا: صفحات للدراسات والنشر.

الحميري، السيد إسماعيل بن محمد. (1999). الديوان. بيروت، لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

ختام، جواد. (2016). *التداولية أصولها واتجاهاتها*. عمان، الأردن: كنوز المعرفة.

الخنساء، تماضر بنت عمر. (2004). *الديوان*. ط2. بيروت، لبنان: دار المعرفة.

الدريدي، سامية. (2007). *الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه*. اربد، الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.

الرقيات، عبد الله ابن قيس. (دون تاريخ). *الديوان*. بيروت، لبنان: دار صادر.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (1426ه). *الاتقان في علوم القرآن*. المدينة، السعودية: مكتبة الملك فهد.

صحراوي، مسعود. (2005). *التداولية عند علماء العرب*. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة.

الصرّاف، علي محمود حجي. (2010). *الأفعال الإنجازية في اللغة العربية المعاصرة*. القاهرة، مصر: مكتبة الآداب.

صولة، عبد الله. (1998). *الحجاج أطره ومنطلقاته*. منوبة، تونس: منشورات كلية الآداب.

صولة، عبد الله. (2011). *في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات*. تونس، تونس: الشركة التونسية للنشر.

عباس، فضل حسن. (2018). *البلاغة فنونها وأفنانها*. ط13. عمان، الأردن: دار النفائس.

العزاوي، أبو بكر. (2006). *الحجاج والمعنى الحجاجي*، ضمن كتاب التحاجج. الدار البيضاء، المغرب: مطبعة النجاح.

العزاوي، أبو بكر. (2006). *اللغة والحجاج*. الدار البيضاء، المغرب: العمدة في الطبع.

علي، محمد عديل عبد العزيز. (2016). *التداولية وتحليل الخطاب الجدلي*. عمان: الأردن: عالم الكتب الحديث.

الفرزدق، همام بن غالب. (1983). *الديوان*. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.

القرافي، أحمد بن عبد الرحمن. (2004). *شرح تنقيح الفصول*. القاهرة، مصر: دار الفكر.

القرآن الكريم.

الكفوي، أبو البقاء أيوب. (1998). *الكليات*. ط2. بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.

المبخوت، شكري. (1998). *نظرية الحجاج في اللغة*. منوبة، تونس: منشورات الآداب، جامعة منوبة.

المتنبي، أحمد بن الحسين. (1900). *الديوان*، بيروت، لبنان: المطبعة العلمية.

المخزومي، مهدي. (1986). *في النحو العربي نقد وتوجيه*، ط2، بيروت، لبنان: دار الرائد.

موشلر، جاك، ريبول، آن. ترجمة مجموعة من الأساتذة. (2010). *القاموس الموسوعي للتداولية*. تونس، تونس: دار سيناترا.

الناجح، عز الدين. (2011). *العوامل الحجاجية في اللغة العربية*. صفاقس، تونس: مكتبة علاء الدين.

نحلة، محمود أحمد. (2002). *أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*. الإسكندرية، مصر: دار المعرفة الجامعية.

Abu Al-Atahia, I. (1986). *Al-Diwan* 'The Divan'. Beirut, Lebanon: Dar- Birot-Lltbaaa-Walnshr. [in Arabic]

Abu Tammam, H. (2000). *Diwan Al-Hamasa* 'Divan of Enthusiasm'. Beirut, Lebanon: Dar Al Kotob Al Ilmiyah. [in Arabic]

Al- Qarafi, Sh. (2004). *Sharah Tanqih Alfusul* 'Explanation Tanqih Alfusul'. Caire, Egypte: Dar Al Fikr. [in Arabic]

Al-Azzawi, A. (2006). *Alhujaj Walmaena Alhijaji* 'Pilgrims and the Pilgrim Meaning'. Casablanca, Morocco: An-Najah Press. [In Arabic]

Al-Azzawi, A. (2006). *Allugha Walhjaj* 'Language and Pilgrims'. Casablanca, Morocco: Alomda Fi Altaba. [In Arabic]

Al-Bayati, S. (2003). *Kwaad Alnhou Alarbi fi Dhoua Nthriah Alnthm* 'Arabic Grammar in Light of Systems Theory'. Amman, Jordan: Dar Wael lilnashr. [In Arabic]

Al-Farazdaq, H. (1983). *Al-Diwan* 'The Divan'. Beirut, Lebanon: The Lebanese Book House. [in Arabic]

Al-Habasha, S. (2008). *Altadawuliat Walhijaj* 'Pragmatisme and Pilgrims'. Damascus, Syria: Dar Safahat for Studies and Publishing. [In Arabic]

Al-Hamri, S. (1999). *Al-Diwan*' The Divan'. Beirut, Lebanon*:* Muasasat al'aelami lilmatbueat. [in Arabic]

Ali, M. (2016). *Altadawuliat Watahlil Alkhitab Aljadalii* 'Pragmatisme and Discourse Analysis Dialectical'. Amman, Jordan: Alam Alkotub Alhadith. [in Arabic]

Ali, M. (2016). *Altadawuliat Watahlil Alkhitab Aljadalii* 'Pragmatisme and Discourse Analysis Dialectical'. Amman, Jordan: Alam Alkotub alhadith. [in Arabic]

Al-Jarjani, A. (1985). *Tariff* 'Definitions'. Beirut, Lebanon: The Library of Lebanon. [in Arabic]

Al-Jarjani, A. Verification: Yassin Al-Ayoubi. (2002). *Dalayil Al'iejaz* 'Evidence of Miracle'. Beirut, Lebanon: Almaktaba Alasriat. [in Arabic]

Al-Kafawi, A. (1998). *Alkuliyat* 'Colleges'. Beirut, Lebanon: Al-Resala Foundation. [In Arabic]

Al-Khansa, T. (2004). *Al-Diwan* 'the Divan'. Beirut, Lebanon: Dar Al Marefa. [In Arabic]

Al-Mabkhout, Sh. (1998). *Nazariat Alhujaj fi Allugha* 'The Theory of Linguistic Pilgrims'. Manouba, Tunisia: Manchorat Aladab, University of Manouba. [in Arabic]

Al-Makhzoumi, M. (1986). *Fi Alnahw Alarabi Naqd w Tawjih* 'In Arabic Grammar: Criticism and Guidance'. Beirut, Lebanon: Dar Al-Raed. [In Arabic]

Al-Mutanabi, A. (1900). *Al-Diwan* 'the Divan'. Beirut, Lebanon: The Scientific Press. [in Arabic]

Al-Sarraf, A. (2010). *Alafal Alinjaziah fi Alarbiah Almaasrah* 'Achievements Verbs in Contemporary Arabic'. Caire, Egypte: Al-Adab Library. [in Arabic]

Al-Suyuti. A. (2006). *Alaitiqan fi Eulum Alquran* 'Proficiency in the Sciences of the Qur'an'. Medina, Saudi Arabia: King Fahd Library. [in Arabic]

Bakhoush, K. (2016). Al'usus almaerifiat linas alhijaji' The knowledge foundations of the pilgrimage approach'. *Medea, Algeria: Journal of Talimyat, Yahya Faris University, Medea*, **n/a**(9), 352–239. [in Arabic]

Dridi, S. (2007). *Alhjaj fi Alshar Alarbi Bniath Wasalibh*' The Pilgrims in Arabic Poetry are its Structure and Methods'. Irbid**,** Jordan**:** The modern world of books for publishing and distribution. [In Arabic]

Fadl, H. (2018). *Al-Balagha Fnounha Wa'fnanha* 'Rhetoric of its Arts and Branches'. Amman**,** Jordan**:** Dar An-nafaes. [in Arabic]

Ibn al-Rumi,A. (2002). *Al-Diwan*' the Divan'. Beirut, Lebanon: Dar Al Kotob Al Ilmiyah. [in Arabic]

Ibn Bard, B. (2007). *Al-Diwan*' the Divan'. Alger, Algeria: Ministry of Culture. [in Arabic]

Ibn Manzoor,M. (n/a). *Lisan Al-Arab* 'The Arabic Tongue'. Beirut, Lebanon: *Dar Sader.* [in Arabic]

Khatam, J. (2016). *Altadawulia Usuliha Waitijahatiha* 'Pragmatisme its Origins and Trends'. Jeddah, Saudi Arabia**:** Konooz Almarefah. [in Arabic]

Moeschler, J. and Rcboul, A. Translate a group of Professors. (2010). *Alqamws Almawsueiu Liltadawulia* 'Dictionnaire Encyclopedique De Pragmatique'. Tunis, Tunisie: Dar Sinatra. [in Arabic]

Nahleh, M. (2002). *Afaq Jadida fi Albaht Allaghawi Almueasir* 'New Prospects in Contemporary Linguistic Research'. Alexandria**,** Egypt**:** Dar Almaarfa Algamaaia. [in Arabic]

Najeh, E. (2011). *Alawamil Alhijajia fi Alluga Alarabia* 'Pilgrims Factors in the Arabic Language'. Sfax, Tunisie: Aladdin Library. [in Arabic]

Sahrawi, M. (2005). *A Tadaouliah Inda Al Aulama Al Arab* 'Pragmatisme at Arab Scholars'. Beirut, Lebanon: Dar Al-Taleah. [in Arabic]

Soula, A. (1998). *Alhujaj Atruh Wamunatalaqatuh* 'Pilgrims Frameworks and its Bases'. Manouba, Tunisia: Publications of the Faculty of Arts. [in Arabic]

Soula, A. (2011). *Fi Nadariat Ahujaj: Dirasat Watatbiqat* 'On Pilgrims Theory: Studies and Applications'. Tunisia, Tunisia: Tunisian Company for Publishing. [in Arabic]